وأرأف ، فَأْتَمَنَ ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربى أعلم بما اختار لك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بى هذه البلية لإحدى خلال : إما تكفيرًا لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر .

وإما رفع لى درجة يقربنى إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ، أو عصمنى من ذنب ، أو صرف عنى داهية ، أو عاجلنى بعقوبة ، لأنْ يرفع عنى عقوبة الآخرة ، ففى كل هذا خير .

وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربى ، فمشيئته أَجَلُّ عندى ، وأعظم على قلبى من نفسى وجميع جوارحى ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه التى رضيها لهم مُنية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

صفة الموقن

عدنا إلى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن طَلَبَ طَلَبَهُ مع سكون القلب ، على حد ما أَمَرَ به ، فإذا

عرض له فى ذلك شيء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى ، أعرض عنه ، وتوجه إلى ربه ، ينتظر من أين يُفتح .

والعارف تخلص من هذا كله من الضمان والوفاء ، وشُغل عن طلب الرزق بالرزاق ، فقلبه فى البحر الأكبر ، وقد تعلق قلبه به ، فإذا ذكر المنة غرق ، وإذا ذكر العافية قلق ، وإذا ذكر حلول الأجل شرق ، وإذا ذكر العيوب عرق ، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق[1] ، وإذا رأى اللذات فى الطاعة مئق[2] ، وإذا ذكره تئق[3] .

وإذا حن إليه واشتاق غرق فى أثقال المنة ، وعظمت آماله فيما لديه ، وقلق من خوف زوال الإيمان ، وشرق بغصته من حلول الأحزان ، لطول الحبس عنه فى دار الدنيا ، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولُطْفِهِ ، وجميل نظره ، وحُسْنِ عوائده ، ومن جميل صنائعه ، ومِنْ هرب النفس منه ، وإعراضه عن حقوقه ، وإظهار جفوته .

وهو من عظيم عطفه عليه فى كلاءته ورعايته ، واصطناعه إليه ، ومئق لما يرى من فتح باب الدعة ، وإكرامه بالطاعة ،

(١) ومق : أحب .

(٢) مئق : فرح .

(٣) تئق : شبع وارتوى ، وتأتى بمعنى حزن وغضب .

وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة ، وتثق من طول الغربة ، وشدة الحنين ، فأنسه به ، وسكونه إليه ، وهو ملجؤه وثقته ، وكهفه وسنده ورجاؤه .

لا يتهمه على نفسه ، ولا يسيء به الظن فى نوائبه ، بحسن معرفته بربه أنه غفور رحيم ، ودود ، حميد ، مجيد ، واحد ، صمد ، قيوم ، كفيل ، وكيل ، جواد ، كريم ، حنَّان ، منَّان ، حى ، لا يموت ، لطيف بعباده ، بر رحيم ، شكور ، غفور ، حليم ، عَفُوٌّ ، رءوف ، معروف بالمعروف ، محسن مفضل ، فضله عظيم ، إحسانه دائم ، كرمه ظاهر ، فاطمأن قلبه .

كما وصفه ربه ، فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[2] إلى آخر

---

(١) سورة الرعد – الآية رقم ٢٨ . والمعنى : إن هؤلاء الذين يرجعون إلى الله ويقبلون على الحق هم الذين آمنوا ، وهم الذين تسكن قلوبهم عند ذكر الله تعالى بالقرآن وغيره ، وإنَّ القلوب لا تسكن إلا بتذكر عظمة الله وقدرته ، وطلب رضاه بطاعته (المنتخب ص ٣٥٨) .

(٢) سورة الزمر – من الآية – رقم ٢٣ .

الآية ، فبين أن القشعريرة[1] إنما هى من الخشية ، فإذا ذكروه فى كرمه وجوده ، ورأفته ، ورحمته ، لانت جلودهم وقلوبهم .

قال له قائل : فما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ، ونَعْقِلُهُ ، ولا يبقى على القلب منه شيء ؟ .

قال : لأن نيران الشهوات فى الخوف قد التهبت ، فهى نيران سود ، مظلمة بالهوى ، وهى مؤدية إلى نار الله الكبرى ، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب ، وأحرق تلك الأنوار ، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذى عليه ، وهى شبيهة بالنار التى تلهب حمرتها ، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه ، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء أوْ رششت عليه قليلَ ماءٍ ، انطفأ قليلًا ثم التهب .

فكذلك صاحب الشهوة ، إذا سمع الموعظة ذَبُلَ قلبه ، وتخسفت نفسه ، لما يصل إليه من الخوف ؛ لأن الوعيد مما تنكسر به النفس ، وتخمد شهواتها .

---

(١) القشعريرة من اقشعر الجلد ، إذا اضطرب وقام شعوره عليه « الفيروزابادى – وبصائر ذوى التمييز جـ٤ ص ٢٧٠ » .

ألا ترى أن الرجل يكون فى لذة من لذات الدنيا ونشاط ، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر وذهب نشاطه ، فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب ، لكانت النفس والشهوات أشد انكسارًا ، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب ، فهو صلب أبدًا ، فرح مرح ، أشرٌ بطرٌ ، فهو ينور بلهب .

فإنما يُطفأ بالماء الكثير الغالب ، وهو العلم المؤدى إلى الخوف والوعيد ، وليس يوجد هذا ، فماالحيلة فى ذلك ؟

قال : إنَّا لا نعلم له حيلة ، إلَّا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه ، فإنه متى زاده وقودًا اتقد ، وثار والتهب ، وقوى . ومتى ما حبس عنه وقوده خمد ، حتى يصير رمادًا ويذهب حر التنور ، كذلك هاهنا ، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد ، فتذهب فورتها والتهابها ، فحينئذ تتخلص أنوار القلب ويقوى ، ويعمل العقل عمله .

ووجدنا فى مبلغ علمنا أن الذى جاء فى الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **أن النار تنادى يوم القيامة للمؤمن ، جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى** » . .

هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه ، حتى يقهرها وتتخلص أنواره ويقوى على قلبه ، فقد أطفأ نورُ قلبه نيرانَ شهواته المظلمة بالهوى ، فهو النور يوم القيامة ، حتى يطفئ ذلك النور لهب النار عنه .

ومن لم يعالج هذا من نفسه ، وخرج من الدنيا مع هذه النيران سوداء مظلمة ، خفت من ألا يقوى نوره على أن يطفئ لهب النيران على الصراط .

لأنه لم يكن له نور على القلب يطفئ نيران شهواته ، وخرجت منه أعمال البر محترقة مختلطة برياء ؛ لأن عامة ما يَصِل من الطاعات ، إنما يُعْمَلُ بهواه ، وبما يخف عليه ، وبما تنشط له النفس وتستحليه ، لا ينظر إلى ما يختار الله له ، ولا يقبل علمه من ربه ، إنما هو عامل لربه على التملك والاقتدار ، ولا خيار للأحوال ، حتى ربما حمله ذلك على ترك الواجب ، فى جنب ما يتطوع به ، وهذا موجود فى الخلق .

ترى الرجل يصلى بالليل ، ويعق والديه ، ويصوم النهار ، ويسوء خلقه ، فى شأن فطوره ، وسحوره ، ويغتاب الناس ، وينفق فى أعمال البر ، ويكتسب الشبهات ، ويعود المرضى ، وينقل الجنائز ، ويؤذى المسلمين ، ويطلب عوراتهم ، ويود

الأباعد ، ويقطع الأرحام ، فهذا رجل جاهل بربه ، يعبده بالهوى ، كلما هوى أمرًا ركبه ، وكذب فيما يقول : إني أريد به الله .

وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس وترك تأديبها ، وقلة النظر فى أمر الله تعالى ، وجهلهم به ، فلو عرفوه لاستراحوا من خدع النفس ودواهيها ؛ لأن النفس إنما تطمع بمخادعة من يجهل ربه ، فأما العلماء بالله ، العارفون بالنفس ، والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها فى خدعهم لأن النفس إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهوانى الذى قد أسره الهوى . وليس لنور الطاعة فى القلب ، ما يغلب الهوى والشهوات ، وإنما القوة الغالبة ، نور المعرفة ، فمن استنارت معرفته ، كانت أموره على بينة ومعاينة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[1] . . . الآية .

فوصف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم علاماته بالإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد

---

(١) سورة الزمر : الآية – رقم ٢٢ .

للموت قبل نزوله ، ومنه قول حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **عرفت فالزم ، من سره أن ينظر إلى عبد نَوَّرَ الله الإيمان فى قلبه ، فلينظر إلى هذا** » .

وما جاء عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال له رجل عَلِّمْنى غرائب العلم .

قال : « **ما صنعت فى راس العلم ؟ عرفت الرب ؟** »

قال : نعم .

قال : « **فما صنعت فى حقه ؟** »

قال : ما شاء الله .

قال : « **هل عرفت الموت ؟** »

قال : نعم .

قال : « **فما أعددت له ؟** » .

قال : ما شاء الله .

قال : « **اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمْكَ غرائب العلم** » .

أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة ، وسماه رأس العلم ، فقد كان مسلمًا ؛ لأنه سأله أن يعلمه غرائب العلم ، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة .

فلما سأله : هل عرفت الرب ؟ أجابه عن معرفته ، فلما سأله عن الامتحان عما صنع فى حقه ، انقطع الرجل ، فقال : ما شاء الله .

وما جاء عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حدثنا بذلك صالح بن محمد قال : حدثنا القاسم العمرى ، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، أن رجلا أثنى على رجل عند عمر ، رضى الله عنه ، فقال : صحبته فى سفر ؟ فقال : لا ، قال : فأتمنته على شيء ؟ قال : لا ، قال : ويحك ؟ لعلك رأيته يخفض ويرفع فى المسجد .[1] .

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قومًا لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا ، فتعرف أحوالهم ، فوصف له رجلا رجلا ، فقيل له : أما هذا الواحد فهو عالم لا يوجد له فى الدنيا نظير لتبحره فى العلم ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه شعبة .

---

(١) هذا يشير إلى قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « **الدين المعاملة** » .

ثم قال له : هذا الرجل الآخر غنى ، لا يوجد له فى الغنى نظير ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا الآخر كريم ، لا يوجد له فى الكرم نظير ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ، وقيل له : هذا الآخر صانع الأشياء ، لا يوجد له نظير فى كل صناعة ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه و قيل له: وهذا الآخر كفيل ، يكفل الأرامل والأيتام ، والضعفاء والفقراء ، لا يوجد له نظير فى رأفته ورحمته ، فعظم فى عينه وأخذ بقلبه .

ثم قيل له هذا الآخر شكور ، عارف بالحقوق ، إن أتيت أدنى شيء شكرك الكثير ، ونشر عليك الجميل ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ، ثم قيل له : ولهذا مملكة وعز ومنعة وسلطان ، قد ملك المشرق والمغرب ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا قوى لا يُطاق ، له قوة ألف رجل من الرجال ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ، فكل رجل منهم يوصف بواحدة من هذه الخصال ، يأخذ من قلبك شعبة ، ويعظم فى عينيك شأنه . وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا .

فلو أن هذه الخصال كلها جُمعَتْ فى رجل واحد ، لكان يعظم فى عينيك ، ويكبر شأنه فى صدرك ، وتعظم منزلته عندك ، ويأخذ بقلبك كله ، فهذه الأشياء لو اجتمعت فى رجل واحد كانت عارية ، وهى عطاء من ربه .

فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة ، وهو مخلوق يفنى ويبلى ، فكيف بالعالم الذى لا يشبه علمه وغناه ، وجوده وكرمه ، وحلمه ومجده ، وبهاؤه وجمالته ، ورحمته ورأفته ، وقوته وقدرته ، وسلطانه وبصره بالأشياء – شيئًا مما عند الآدميين ، وإنما اتفقا بالاسم .

فأما الأشباه فتعالى ربنا ، رب العالمين عن أن يشبهه شىء من خلقه ، فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره ، ووعده ووعيده ، وضمانه وكفالته وقوته ؟

فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه ، واطمأن إلى ربه ، ووثق بقوله ، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى ، حين قبلوا الإيمان بالجملة ، ثم استأداهم الوفاء به عند النوائب ، فمنهم من وَفَّى ، ومنهم من سقط ، وبقى فى الطريق ، فأظلم عليه الهوى ، ووقع من التخليط فى الذنوب .

ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ، والرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك . فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطَرَ الناس عليها .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ * قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) سورة ص – من الآية رقم ٢٦ .

(٢) سورة المؤمنون – الآيات ٨٤ – ٨٩ .

وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل ، ثم أشركوا به غيره فى مُلكه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[3] .

فأقروا بالربوبية ، ثم اشركوا فيه ؛ لأنهم نطقوا من قلب مظلم ، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلًا فى كتابه فقال : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾[4] .

(١) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦١ .
(٢) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦٣ .
(٣) سورة يوسف – من الآية رقم ١٠٦ .
(٤) سورة البقرة – من الآية رقم ٢٠ .

وقال : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[1] .

فأقروا له بالربوبية ، ثم غفلوا عنه ونسوه ، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه ، ثم الغضب مركب فيه ، والشهوة كذلك .

فالرغبة فى النفس من قبل النفس ، والرهبة فى النفس من أجل النفس .

والخلق بهذه الصفة من مات منهم ، فإن جهنم موعدهم ، لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم ، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق .

فكل من غلب عليه خُلُق من هذه الأخلاق ، نُسب إليه وأُلقى فى ذلك الباب ، وعذب فى ذلك الدَّرْك . وما يُصَدِّقُ ذلك ما جاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« للنار باب لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بسخط الله

---

(١) سورة البقرة – الآية رقم ١٧ ما عدا الكلمة الأولى (مثلهم) .

تعالى » . حدثنا بذلك أبى – رحمه الله – قال : حدثنا عبد الله بن نافع الدينورى ، عن إسماعيل بن شيبة الطائفى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **مَنْ مَنَّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة وجعل له نورًا يمشى به فى الناس ، كان له وليًّا ، يخرجه من الظلمات إلى النور ، وكان ميتًا فأحياه** » ووصف ذلك كله فى كتابه ، فقال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[1] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[3] .

وقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٢ .
(٢) سورة البقرة – من الآية رقم ٢٥٧ .
(٣) سورة النور – من الآية رقم ٣٥ .
(٤) سورة النور – من الآية رقم ٤٠ .

فوصفه إلى آخر الآية وقال : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[1] . ثم قال : ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] إخبارًا عن المنة عليهم ، فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذى أعطى ، نطق لسانه بتوحيده ، وعرف قلبه ربه ، وصدقه فى وعده ووعيده ، فاستسلم وألقى يديه ، فذهب عن الشك والشرك والغفلة ، فتيقظ وأيقن وأخلص ، وبدل بالغفلة اليقظة ، وبدل بالشك اليقين ، وبدل بالشرك الإخلاص ، وبقيت فيه الشهوة والرغبة ، والرهبة والغضب .

وكلما ازداد العبد فى إيمانه نورًا وقوة وشعاعًا ، تنقَّص من الغضب والشهوة ، والرغبة والرهبة ، فكل مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه ، يغفل عن ربه ، وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك ، ولكنه ريبة القلب واضطرابه وتغيره ، كالشرك وليس بشرك ، ولكنه شرك الأسباب الموضوعة ، فيتعلق بالأسباب ، ويكون اعتماد القلب على الأسباب ، وينسى ربه ، لا لأنه يجحده .

(١) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٥ .
(٢) سورة الأنعام – الآية رقم ١٢٧ .

إذا ذكر أقر ، وإذا نسى تعلق قلبه بالأسباب حتى يفتتن ، والأسباب مثل الحصن ، يدخل فيه الخائف ، والسلاح يأخذه فيتقوى ، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح ، وينسى ربه ، وكالدواء ، ليستشفى به ، فينسى ربه فى شأن الرزق ، يطلب ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن .

فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر ، وجميع الخلق أسباب ، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه ، وهو سبب المعصية والفتنة .

فإذا استنارت معرفته فعملت ، كانت كالشمس تشرق فى قلبه بالأسحار ، ولا ظلمة ولا غبار ، فصارت الأشياء له معاينة ، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب إلى ولى الأسباب .

ومنه قول عيسى بن مريم ، عليه السلام : « لو أن رجلًا مستكمل الإيمان يهز جبلًا لزال عن مكانه » ومنه قوله لبعض الحواريين حين أراد أن يلحقه فى البحر فيمشى على الماء معه :

« هات يدك يا قصير الإيمان » . ثم مشى به فى موج البحر .

فقال : خفت الموج ؟

قال : نعم .

قال : ألا خفت رب الموج ؟

ومنه قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ أَحَبَّ لله ، وأبغض لله ، ومنع لله ، وأعطى لله ، ونصح لله ، فقد استكمل الإيمان** » .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « **قل اللهم إنِّى أسألك صحة فى إيمان ، وإيمانًا فى حُسن خُلُقٍ ، ونجاحًا يتبعه فلاح ، ومغفرة منك ورحمة ورضوانًا** » .

وفى هذا الباب حديث كثير عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ومنه قول الحسن البصرى – رحمة الله عليه – فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾[1] ، قال : غير مستكمل الإيمان : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) سورة الأنبياء – من الآية رقم ٩٤ .

﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[1] .

أى تطهر من الأسباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات العُلَى فى جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء .

فمن هاهنا قالوا بزيادة الإيمان[2] ، سموا هذا النور الذى يزداد العبد بربه معرفة به ، إيمانًا كالشمس ، شعاعها الذى يقع بالأرض نسميه شمسًا ، والذى يطلع فى المجرى نسميه شمسًا ، لأن هذا منه .

ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن من أمتى رجالًا حال بينهم العُرْىُ عن أن يأتوا مُصَلَّاهُم ، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهم أويس القرنى ، وفرات بن حباب العجلى** » رحمه الله عليهما . حدثنا الفضل بن محمد قال : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن مهدى وعبد الله بن الأشعث ، عن سوار ، عن محارب بن دثار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

---

(١) سورة طه – جزء من الآية رقم ٧٥ بعده الآية : ٧٦ .

(٢) والإيمان يزيد وينقص – كما قال الكثير من العلماء – قال تعالى فى سورة الأنفال – الآية الثانية – : ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** ﴾ .

فسموا هذا النور إيمانًا ، وذلك جائز فى اللغة ، وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله : « غير مستكمل الإيمان » ، أى لم يستكمل النور .

فوجدنا التبحر فى العلم بالله ، بحسن المعرفة ، يملأ القلب نورًا ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ، من الشهوات الهاوية فى القلب إلا الإخلاد والتَّمَكُّث ، فلذلك تراه فى الآخرة يطفئ نوره نيران الآخرة ، والتمكث على الجسر . وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر .

قلنا : كان أصل هذا الأمر والمدار عليه هو الإيمان به ، وحسن المعرفة له كما وصفنا ، من السكون ، والطمأنينة ، والثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين ، وقوته ، كما ذكرنا بَدِيًّا ، امتحن الله تعالى بفرائضه ، وحدوده ، وأمره ، ونهيه ، ونهاهم عن أشياء ، وشهوات تلك الأشياء مركبة فيهم .

وأمرهم بأمور ، فثقل عليهم إتيانها ، وحَدَّ لهم حدودًا ، فمد لهم هواهم إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيها ، والقعود عن إتمامها ؛ ليظهر ما فى ضمائرهم ، ومقادير إيمانهم ، فى الضعف ، والقوة ، لخلقه من فى السمٰوات والأرض ،

والملائكة ، وسائر الخلق، [حتى][1] إذا رفع بعضهم فوق بعض فى الدرجات لم ير أحد من خلقه من الملائكة ، والسمٰوات ، والأرض ، وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جميلًا .

وابتلاهم بالطاعة ، وبالحدود ، والفرائض ، والأمر ، والنهى ، فقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾[2] . أى يستخرج أسرار ضمائرهم حتى يكون عذرى يوم القيامة قائمًا ، وأمرى ظاهرًا ، فلا يرى خلقى منى ذلك إلا حَسَنًا جميلًا ، ومعروفًا .

فلما عرف أنهم يضيعون حدوده وفرائضه ، من أجل الشهوات المركبة فيهم وضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى ، والشهوات ، وقلة المعرفة ، بأمور ربه ، وضعف اليقين ، وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم ، وتعظيمًا لهم ، لأن مَنْ آمن ، ودخل فى ولايته ، وحزبه ، صار سعيدًا بجنته ، فحرَّمَ

---

(١) فى الأصل : لكى .

(٢) سورة محمد – الآية رقم ٣١ .

دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، بعضهم على بعض ، وحَرَّمَ عليهم الغيبة ، والبهتان ، والزور والتجسس ، وسوء الظن ، وهتك الستر ، وطلب العورات ، والجهر بالسوء ، والأذى ، وحرم عليهم الزنى ؛ لأن فيه الغيرة والأذى بعضًا لبعض ، وحرَّم الخمر ؛ لأن فيها الأذى ، وتلف النفس ، وإهلاكها ، وحرم الربا ، ودل على المواساة ، والتقارض ، وقال : ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[1] .

ففى ذلك دليل على حَضِّهم ، ومنع بعضهم من بعض ، وحَضِّهُم على البِرِّ بعضهم لبعض ، إبقاءً عليهم ، ومرفقًا لهم ؛ لأنهم أهل خاصته وصفوته ، ودعاهم إلى الصلوات الخمس ليطهر أبدانهم ، ودعاهم إلى الزكاة ليطهر أموالهم ، ودعاهم إلى الجمعة ليطهر خطاياهم ، ودعاهم إلى الحج ليعتق رقابهم من عظائم الإثم ، ودعاهم إلى صلة الأرحام ليرحم بعضهم بعضًا فيرحمهم ، ودعاهم إلى الجهاد فيتخذ منهم شهداء ويرفعهم فى الدرجات .

ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة ، دعاهم إلى بر الوالدين ليقوم بشكرهما من أجل التربية ؛ لأنه يبغض الكفور ،

(١) سورة البقرة – من الآية رقم ٢٣٧ .

ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار ، وإلى ذى القربى ، وإلى الصاحب بالجنب ، وإلى الضيف والمملوك ، وكل هؤلاء أهل حقوق . ودعاهم إلى الإحسان إليهم ؛ ليكون ذلك شكرًا لهم . فهذه الأشياء كلها عبادة تعبدهم بها .

فأما أصل الأمر فهو ما وصفته لك فى أول الكتاب : أنه دعاهم إلى إحكام المعرفة حتى يسكنوا إليه ، فقلب العبد من قبل أن يؤمن أغلف ، وللقلب عين ، وآذان . فإذا كان العبد ممن خلقه الله تعالى للرحمة ، وسبقت له منه الحسنى ، جعل له ذلك النور ، كما نطق به الكتاب ، فقال : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[1] . أى بذلك النور ، وهو قوله : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[2] .

ولا نرى ذلك النور إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « **إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فقد عَلِمَ من يصيبه ومن يخطئه ، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضًا وسودًا ، ثم استنطقهم**

---

(١) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة الأنعام – من الآية رقم ١٢٢ .

يومئذ » . فبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه ، أنه قال : فأقروا له بالربوبية طوعًا وكرهًا وتقية ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[1] ، حدثنا بذلك عن ابن عمر ، وعن أسباط ،عن السدى ، عن أبى صالح ، وأبى مالك ، عن ابن عباس . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2] . وقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[3] .

فلما حيى القلب بذلك النور صار سميعًا بصيرًا . وروى عن الحسن – رحمة الله عليه – تفسير هذه الآية : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[4] . قال : صُمُّ آذانِ القلوب . وعلى تأويل قوله تعالى عندنا : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟

---

(١) سورة آل عمران – من الآية رقم ٨٣ .
(٢) سورة النور – من الآية رقم ٤٠ .
(٣) سورة الزمر – من الآية رقم ٢٢ .
(٤) سورة مريم – من الآية رقم ٩٧ .

وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[1] . وقال تعالى :﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[2] .

فالحيُّ هو المؤمن ، فلما صار قلب هذا العبد منورًا بما رحمه الله ، وقسم له فى سابق علمه ، صار القلب بلا غلاف ، وأذن له ربه بالإيمان به ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[3] .

فذكر هاهنا الإذْن للنفس ثم ذكر القلب ، فقال : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾[4]. فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت ، وبماذا آمنت ، فخرج القلب من الغلاف ، كسحابة انقشعت عن شمس ، فاستنار ، وسمع عن الله تعالى ، وأبصر الغيب ، فصار مجتبًى

---

(١) سورة الأعراف – الآية رقم ١٩٨ .
(٢) سورة يس – الآية رقم ٧٠ .
(٣) سورة يونس – من الآية رقم ١٠٠ .
(٤) سورة الحجرات – من الآية رقم ٧ .

من أهل جباية الله تعالى ، وذلك قوله عز وجل : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[1] . وصار موسومًا بسمة الله ، وهو ذلك النور الذى أصابه .

فلما أهينت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب ما سمع عن الله ، وأبصر بالغيب ، وَعَقَلَهُ ، وعزم عليه ، صار موسومًا بِسِمَةِ الله ظاهرًا وباطنًا ، فقيل : هذا مؤمن ، وهذا مسلم ؛ لأنه قد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله ، ومَنْ أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه بِكُلِّه ؛ لأن الوجه اسم جامع .

ألا ترى أنك تقول فى اللغة للسائلين بين الناس : رأيت وجوهًا كثيرة ، فدخل فيه البدن كله . والمؤمن إذا آمن وقُبِلَ أمره ، فإنه يعمل على تسليم نفسه إليه ؛ لأن إيمانه إنما آمن بأنه ربه ، فرقبته له ، وجميع ما ملكت يمينه له ، وقد سلم إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[2] . أى فى اللوح المحفوظ ﴿وَفِى

---

(١) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

هَـٰذَا﴾ يعنى : فى القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ .

أى : إذا جاءت الأنبياء ، فسئلوا عن تبليغ الرسالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبلغنا رسلك أمرك ، فنسلم أنفسنا وملك يميننا لك ، ونأتمر بأمرك ، فأنتم أهل تسميتى ، الذين سميتكم مسلمين ، بأنكم قد سلمتم إلَىَّ أنفسكم فيشهد لكم بذلك الرسول ، الذى بعثته بالمقام المحمود ، الذى يغبطه الأولون والآخرون ، فبلغنا فى الحديث : « **وتشهدون أنتم لرسلى على أممها التى لم تسلم لى نفسها ، فبهذا صرتم شهداء رسلى ، وحجتى على خلقى** » .

فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لمَّا حَبَّبَ إليه الإيمان ، أى وصل إلى حبة قلبه ، وتزين ذلك فى قلبه ، انقاد لربه ، ألقى بيديه إلى ربه مسلمًا ، جاءت النفس بظلمها وظلمتها ، وهى الهوى ، فوقفت بين يدى القلب ، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة ، فقيل غفلة ، والأول كانت غلفة .

فلما ذهبت الغلفة ، حيث جاء النور ، وبقى الهوى غفلة وقد نجد مثل هذا كثيرًا فى اللغة ، يقال : جبذ وجذب وكشر

وشكر ، وزرق ورزق ، ومجر ومرج ، وحدج وجحد ، وعلم وعمل ، وغرف وغفر ، ومثل هذا كثير[1] ، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد ، ولكنهما اشتُقَّا فاستعمل هذا فى نوع ، وهذا فى نوع ، والآخر فى نوع . وإن كان القالب يختلف على فعل وعفل ، فإن الاشتقاق من معنى واحد ، وخُولف فى القالب للاستعمال فى نوعه ، ليُعرف باختلاف القالب نوعه الذى عنى به .

وكذلك الفعل أيضًا مثلهم ، فقيل : كشر إذا تبسم فبدت أسنانه ، وإذا بدا لقلبه فرأى نعمة إليه من الأسباب شكر ؛ لأن النعم قد بدت له ، وكذلك قوله : رزق .

هذا فيما بدا إليه من الأسباب فى مطعمه ومعاشه ، وهذا فيما بدا إليه بالسبق ، فيرزق به .

وكذلك يقال فى الحربة والمزراق ، فكذلك الغفلة والغلفة ، معناه عندنا أن الغلفة فى وقت الكفر ، والكفر هو الغطاء[2] ، فإذا ذهبت تلك الغلفة ، ورفع الله الغطاء بمجىء

---

(١) راجع ابن منظور : لسان العرب .

(٢) انظر الفيروزابادى و « بصائر ذوى التمييز » جـ٤ ص ٣٦١ .

النور ، بقيت الغفلة ، وهو الهوى ، قائمًا فيما بينه وبين ربه .

وكان للقلب حجابان : حجاب غطى ظلمة الكفر ، فإذا ذهب الغطاء بقى الحجاب الآخر قائمًا بينه وبين ربه تعالى ، فهو الذى يغفله وينسيه ، وهى التى تسمى غفلة ، فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها ، وتلظى نيران شهواتها بين قلب العبد وبين ربه ، بعد أن أسلم له وانقاد ، واعترف وقبل أمره وعزم عليه ، فهو يتعاصى عليه وتستأديه الشهوات التى حرمت عليه ، وتزلزله فى شأن الرزق وتوسوس إليه فى نوائبها وأمورها على تدبيرها المنكوس ، وجهلها المظلم ، والرب الرحيم الرءوف به قد اختار له غير ذلك ، مما هو أرفق به وأبر له وأزين به وأفضل .

فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له ، فحديث النفس وسوسة تدبيرها ، وخيبته ومنته ، وأشقته وألهته ، وأظلمت عليه الصدر ، وهى سلاح عدوه الشيطان الرجيم ، بها يخدعك ويوسوس لك ، ويزين لك ، ويعين هواك عليك .

فلذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن أعْدَى عَدُوِّك نَفْسُكَ التى بين جنبيك** »[1] .

فلما كنت بهذه الحالة وقد ألقيت بيديك إلى الله سلمًا ، بما جعل فى قلبك ، أمرك بمجاهدته ، فقال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[2] .

وأنبأك فى كتابه شأن النفس والهوى ، فى آى كثيرة ، منها ما ذكر عن قول يوسف عليه السلام ، حيث قال : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾[3] .

وحيث قال لداود عليه السلام : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[4] . . . الآية . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ

---

(١) ذكره النبهانى فى الفتح الكبير جـ٣ ص ٦٠ عن ابن مالك بن الأشعث ، وكذلك ذكره صاحب فيض القدير جـ٥ ص ٣٦٧ .

(٢) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

(٣) سورة يوسف – من الآية رقم ٥٣ .

(٤) سورة ص – من الآية رقم ٢٦ .

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[1] . الآية .

فأمره بالمجاهدة ، حق المجاهدة ، ثم أيدنا وشجعنا فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] . فسماه محسنًا ، ووعده أن يكون معه ، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يُغلب .

فوعدك على المجاهدة حق جهاده ، أنه هو الذى يلى هدايتك سبيله ، هذا ثوابه فى العاجل ، فكيف بثوابه فى الآجل ، إذا قدمت عليه غدًا بالمجاهدة وبثمرة المجاهدة ؟

فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة ، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى ، وبولاية الله نلت قربة الله وزلفاه ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾[3] . أى كما جعلتك من أهل جبايتى ، جعلت لك نورًا ، وفتحت عينى قلبك ، وفتحت أذنى قلبك حتى عرفتنى .

فالآن جاهد فى ذاتى هواك وشهوات نفسك ، حتى يظهر انقيادك لأمرى ، ويعز دينى ، وتعلو طاعتى ، والمجاهدة على

(١) سورة النازعات – من الآية رقم ٤٠ .

(٢) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦٩ .

(٣) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

قالب المفاعلة ، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، إلا فى النادر فى الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ .

وقال فى آيه أخرى : ﴿ **واعتصموا بالله** ﴾ ، أى امتنع من شر النفس وحربها وعداوتها بالله تعالى ، فكأن النفس عدوك ، يرميك بسهم الشهوة ، والهوى يقويها وهى مظلمة ، لا تستعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسهم المعرفة والعقل ، وتستعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ؛ لأنك بالله تجاهدها ، وهى تجاهدك لا بالله .

فذلَّكَ ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ، وشجعك على المجاهدة فقال : ﴿ **هو مولاكم** ﴾ أى يلى نصركم ، ثم قال : ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1] ، ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ، ومتابعتها .

فإذا تركت الاعتصام به خذلك ، وخذلانه أن يمنع النصرة ، فإذا منع النصرة فجاهدت النفس ، رمتك بسهام الشهوة والهوى ، فرميتها بسهام المعرفة والعقل لم تغلبها

(١) سورة الحج – من الآية رقم ٧٨ .

وغلبتك ؛ لأن العلم والعقل والمعرفة فى القلب ، والهوى والشهوة خارج من القلب ، قائم بين القلب وبين الرب ، قد أظلم على سمعك وبصير عينى قلبك بغشاوته ، فسجن ما فى القلب ، وغلب على القلب ، فصار بمنزلة سراج فى بيتٍ ، والسراج فى الفخار وعليها غطاء ، فالبيت مظلم . .

فإذا انكشف الغطاء ، أبصر ما فى البيت ، مما يضر وينفع ، فإذا جاهدت النفس ، فاعتصامك به فى ذلك ، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به ، واستغناك به ، هو الذى يغنيك ويعينك ، فينصرك ، وكيف لا يعينك وقد أمرك بأن تقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] ؟

فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك ، وقال تعالى :﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[2] . ثم لا يجيب ولا يكشف ، تعالى الله عن ذلك ، وإذا نسيته فى ذلك الوقت، منع النصرة، لتركك ذكره ، ولاقتدارك فى الأمر .

---

(١) سورة الفاتحة – الآية رقم ٥ .

(٢) سورة النمل – من الآية رقم ٦٢ .

وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيته ، واقتدرت فى أمره ، وقد أمرك بأن تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فمن اقتدر فى أمره ، والأمر كله لله ، والخلق لله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعَرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[1] .

النصرة

قال له قائل : فما النصرة ؟ هل يمكن أن تُوصف ؟

فقال : إن نور المعرفة فى القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجابًا ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرته أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقًا

---

(١) سورة آل عمران – من الآية رقم ١٦٠ .